٢

الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام، وأثره في إيضاح المقاصد القرآنية عند علماء التفسير (سورة سبأ أنموذجاً)

د. محمد عبد الرحيم مطيع العواضي
أستاذ اللغة العربية المساعد بالجامعة الوطنية

ملخص البحث

تناول البحث الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام، وأثره في إيضاح المقاصد القرآنية عند المفسرين من خلال سورة سبأ، مبرزًا استعماله في مواضعَ لتأكيد أغراض بلاغية متنوعة؛ كالإنكار والتعجب والتوبيخ والتهديد. فأسهم هذا الأسلوب في تصوير إنكار الكافرين لعقيدة البعث بأسلوب يجمع بين الشدة في الإنكار والتهكم، مما ساعد في بيان موقفهم الرافض للحق، وتحقيق أثر بلاغي يتناسب مع المقام. واتضح من خلال البحث- أيضا- أن اختلاف نسبة أسلوب الاستفهام وألفاظه في السياق القرآني يعكس تنوع الدلالة البلاغية، وأن ارتباط هذا الأسلوب بصور بيانية فريدة، يؤكد على خصوصية التعبير القرآني وجماله، ويُظهر بلاغة القرآن الكريم في عرض الحقائق بأسلوب مؤثر ومقنع، فأثر ذلك في إبراز المقاصد القرآنية عند علماء التفسير.

الكلمات المفتاحية: الاستفهام- التفسير- أغراض بلاغية- المقاصد القرآنية

The Rhetorical Purpose of the Interrogative Style and its Role in Clarifying Qur'anic Intentions According to Tafsir Scholars: Surat Saba' as a Model

Abstract:

This study examines the rhetorical purpose of the interrogative style and its role in clarifying Qur'anic intentions, as interpreted by Tafsir scholars, using Surat Saba' as a model. The research highlights how this style is employed in various instances to serve diverse rhetorical purposes, such as denial, amazement, rebuke, and threat. This rhetorical approach effectively portrays the disbelievers' denial of the resurrection doctrine, combining intense rejection with sarcasm. This blend illustrates their opposition to the truth and creates a rhetorical effect well-suited for the context.The study also reveals that the variation in the frequency and wording of interrogative expressions within the Qur'anic context reflects the diversity of rhetorical meanings. Furthermore, the association of this style with unique figurative imagery underscores the distinctiveness and beauty of Qur'anic expression, showcasing its eloquence in presenting truths impactfully and convincingly. This, in turn, enhances the understanding of Qur'anic intentions according to Tafsir scholars.

Keywords: Interrogation, Tafsir, Rhetorical Purposes, Qur'anic Intentions

المقـدِّمة:

إن أساليب اللغة العربية المتنوعة –ولاسيما أسلوب الاستفهام البلاغي– لها أثر في إيضاح المعنى وإبراز المقاصد القرآنية؛ كما تناولتها كتب التفاسير من حيث تنوع الأقوال في المسألة المتعلقة بذلك الأسلوب.

ومن هذا المنطلق جاءت فكرة هذا البحث، حيث إني لم أقف– من خلال الاطلاع في الشبكة العنكبوتية– على دراسة علمية تتناول أثر أسلوب الاستفهام البلاغي في إبراز المقاصد القرآنية عند علماء التفسير، والإفادة منها في إثراء هذا البحث.

وتتمثل أهمية دراسة هذا الموضوع بصلته بكتاب الله تعالى، والحاجة لإبراز أثر أسلوب الاستفهام البلاغي في إيضاح المقاصد القرآنية عند علماء التفسير، وإبراز جوانب من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم تتعلق بأسلوب الاستفهام وأغراضه البلاغية كما وردت في كتب البلاغة وبعض كتب التفسير المعتمدة.

وبناءً على ذلك فإن هذا البحث يهدف إلى إبراز أثر أسلوب الاستفهام البلاغي في إيضاح المقاصد القرآنية عند علماء التفسير من خلال سورة سبأ؛ إظهاراً لجوانب من صور البيان في القرآن الكريم، معتمدا المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي؛ وذلك من خلال تتبع الآيات من سورة سبأ ولاسيما الآيات التي تضمنت أساليب الاستفهام وأغراضها البلاغية، في أشهر كتب التفسير، وذكر أقوال العلماء فيها، ثم إبراز أثر ذلك الأسلوب في إيضاح المقاصد القرآنية عند بعض المفسرين.

وقد تضمن هذا البحث مقدمة ومبحثين وخاتمة، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

المقدمة، وقد تناولت أهمية البحث، وأهدافه، ومنهجه، وسبب اختيار عنوانه، وخطة إجراءاته.

المبحث الأول: وقد تضمن تعريف أسلوب الاستفهام، وتوضيح أثر الأساليب في فهم المقاصد القرآنية، وفيه مطالبان:

المطلب الأول: تعريف أسلوب الاستفهام

المطلب الثاني: أثر أساليب المعاني في فهم المقاصد القرآنية

المبحث الثاني: أثر أسلوب الاستفهام البلاغي في سورة سبأ، وفيه أحد عشر مطلباً:

المطلب الأول: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨).

المطلب الثاني: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩).

المطلب الثالث: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)

المطلب الرابع: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٢٣)

المطلب الخامس: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

المطلب السادس: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

المطلب السابع: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ(٣٢)

المطلب الثامن: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

المطلب التاسع: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)

المطلب العاشر: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)

المطلب الحادي عشر: أثر الاستفهام البلاغي في قوله تعالى: (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)

الخاتمة، وفيها، أهم النتائج، والتوصيات.

المبحث الأول: أسلوب الاستفهام، وأثر الأساليب في فهم المقاصد القرآنية:

تجدر الإشارة إلى أن أسلوب الاستفهام يعد أحد أساليب علم المعاني - كما سيتجلى لاحقاً- ؛ لذلك سيتم تعريف الأسلوب، ثم أسلوب الاستفهام، وذكر أثره في فهم المقاصد القرآنية، من خلال هذا المبحث.

المطلب الأول: تعريف أسلوب الاستفهام:

لتعريف أسلوب الاستفهام سنعرف الأسلوب، ثم أسلوب الاستفهام، وذلك على النحو التالي:

أولاً: تعريف الأسلوب: وردت تعريفات للأسلوب، من أهمها:

- "الأسلوب: الضرب من النظم، والطريقة فيه"(١).
- "الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه"(٢).

مما سبق يمكن أن يقال إن الأسلوب هو الطريقة التي يسلكها الكاتب أو المتحدث في تأليف كلامه واختيار ألفاظه.

ثانياً: تعريف أسلوب الاستفهام:

يرد الاستفهام في الأصل بمعنى طلب الفهم أو الإفهام، قال الرماني: "الاستفهام طلب الفهم"(٣)، وقال أبو البقاء العكبري: "الاستفهام طلب الإفهام، والإفهام تحصيل الفهم والاستفهام والاستعلام والاستخبار بمعنى واحد"(٤)، وقال ابن هشام: "وحقيقته: طلب الفهم، نحو: أزيد قائم؟"(٥).

---

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٤٦٨.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، ٢/٢٣٩.

(٣) منازل الحروف، الرماني، ١/٧٣.

(٤) اللباب في علل البناء والاعراب، أبو البقاء، ٢/١٢٩.

(٥) مغني اللبيب، ابن هشام، ١/١٧

وهو بهذا المعنى محال عن الله تعالى؛ لعلمه المطلق سبحانه وتعالى، قال الرازي: "والاستفهام من الله تعالى محال وهو عالم بجميع الأشياء، فنقول: هذا إذا كان المراد من الاستفهام طلب الفهم"(١).

أما إذا كان المراد إلزام من أعرض عن الوفاء ما وعد أو أنكر الحق وأصر على الباطل فلا"(٢).

فالاستفهام طلب الفهم والاستعلام، ويخرج عن غرضه الحقيقي إلى أغراض بلاغية كالإنكار والتقريع والتقرير والتوبيخ ونحو ذلك مما سيتجلى في المبحث التطبيقي على سورة سبأ.

المطلب الثاني: أثر أساليب المعاني في فهم المقاصد القرآنية:

الأساليب العربية باختلاف أنواعها المذكورة في علوم البلاغة: (علم البيان، وعلم المعاني، وعلم البديع) هي أدوات لإيضاح المعاني والكشف عن أسرارها.

وبأساليب اللغة المختلفة يدرك العبد فضل القرآن وأسرار معانيه، قال ابن قتيبة: "وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب"(٣).

لذا فقد أشار الزمخشري إلى إنه لا يدرك أسرار معاني القرآن إلا من غاص في معانيه وبرع في عِلمين مختصين بالقرآن الكريم، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وأن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ وافر(٤).

فالأساليب العربية توضح معاني الآيات، وتقود إلى الفهم الصحيح، وتأخذ بصاحبها إلى إزالة الاشكال واللبس الواردين في فهم بعض النصوص، مما يدفع ما ظاهره التعارض بين نصوص القرآن الكريم أو السنة النبوية(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٥٢٧/٢٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٥٢٧/٢٩.

(٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص١٧.

(٤) انظر: مقدمة الكشاف للزمخشري، ص٢.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣٣٠/١، ٣٥٤/١١.

ولا يقتصر دورها على ما سبق بل يتعدى إلى صيانة القرآن من دعوى اللحن أو الخطأ فيه، وسدِّ الباب في وجوه الملاحدة والمشككين بهذا الدين(١).

وأما أساليب علم المعاني بما تتضمن من خبرٍ، وإنشاء (طلب) كالاستفهام والأمر والنداء والتمني وغيرها فتكمن فائدتها فيما ذكره الهاشمي وهو: "معرفة إعجاز القرآن الكريم، من جهة ما خصَّه الله به من جودة السبَّك، وحُسن الوصف، وبَراعة التَّراكيب ولُطف الإيجاز، وما اشتمل عليه من سُهولة التركَّيب، وجزالة كلماتهن وعُذوبة ألفاظه وسلامتها - إلى غير ذلك من محاسنه التي اقعدت العرب عن مناهضته، وحارتَ عقولهُم أمام فصاحته وبلاغته"(٢).

المبحث الثاني: أثر أسلوب الاستفهام البلاغي في إيضاح المقاصد القرآنية من سورة سبأ، وفيه أحد عشر مطلبا:

المطلب الأول: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨).

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

- قال الطبري: "وقال الذين كفروا بالله وبرسوله محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم متعجبين من وعده إياهم البعث بعد الممات بعضهم لبعض (هَلْ نَدُلُّكُمْ) أيها الناس"(٣).

وقال: "يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هؤلاء الذين كفروا به وأنكروا البعث بعد الممات بعضهم لبعض معجبين من رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم في وعده إياهم ذلك: أفترى هذا الذي يعدنا أنا بعد أن نمزق كل ممزق في خلق جديد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦٢٣/١، ١٣٠/٢، ٦٨٠/٧.

(٢) جواهر البلاغة، الهاشمي، ٤٧/١.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٤٥١/٢٠.

على الله كذبا، فتخلق عليه بذلك باطلا من القول وتخرص عليه قول الزور"(١).

- قال الواحدي: "(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)، يعني منكري البعث، قال بعضهم لبعض: (هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ)، يزعم أنكم تبعثون بعد أن تكونوا عظاما وترابا ورفاتا"(٢).

وقال: "(أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)؛ هذا -أيضا- من قول الكفار بعضهم لبعض، قالوا: أفترى محمد على الله كذبا حين زعم أنا نبعث بعد الموت، والألف في أفترى هي همزة الاستفهام، وهو استفهام تعجب وإنكار"(٣).

- قال البغوي: "وقال الذين كفروا، منكرين للبعث متعجبين منه، هل ندلكم على رجل ينبئكم، أي يخبركم يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم، إذا مزقتم كل ممزق، قطعتم كل تقطيع وفرقتم كل تفريق وصرتم ترابا إنكم لفي خلق جديد، يقول لكم إنكم لفي خلق جديد. وهنا نجد ألف استفهام اقترنت بهمزة الوصل؛ ولذلك فتحت، (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ)؛ أي أنهم يقولون أزعم كذبا أم به جنون"(٤).

- قال الزمخشري: "قال بعضهم لبعض: هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يعنون محمدا صلى الله عليه وآله وسلم: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب: أنكم تبعثون وتنشؤون خلقا جديدا بعد أن تكونوا رفاتا وترابا ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق، أي: يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد. أهو مفتر على الله كذبا فيما ينسب إليه من ذلك؟ أم به جنون"(٥).

- قال الخطيب الشربيني: "(وقال الذين كفروا) أي: قال بعضهم على وجه التعجب لبعض (هل ندلكم على رجلٍ)... والهمزة في (أفترى) همزة استفهام، فالقراء الجميع يحققونها، واستغنى بها عن همزة الوصل فإنها تحذف

(١) جامع البيان، الطبري، ٤٥٣/٢٠.

(٢) التفسير الوسيط، الواحدي، ٤٨٧/٣.

(٣) التفسير الوسيط، الواحدي، ٤٨٧/٣.

(٤) تفسير البغوي، ٦٧١/٣.

(٥) الكشاف، الزمخشري، ٥٦٩/٣.

لأجلها فلذلك تثبت هذه الهمزة ابتداء ووصلاً"(١).

ثم قال: "تنبيه: قوله (أفترى) يحتمل أن يكون من تمام قول الكافرين أولاً، أي: من كلام القائلين (هل ندلكم) ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب للقائل (هل ندلكم) كأن القائل لما قال له (هل ندلكم على رجل) قال له: هل افترى على الله كذباً إن كان يعتقد خلافه أم به جنة أي: جنون"(٢).

- قال ابن عاشور: "والمخاطب بقولهم: (هل ندلكم) غير مذكور؛ لأن المقصود في الآية الاعتبار بشناعة القول، ولا غرض يتعلق بالمقول لهم. فيجوز أن يكون قولهم هذا تقاولا بينهم، أو يقوله بعضهم لبعض، أو يقوله كبراؤهم لعامتهم ودهمائهم. ويجوز أن يكون قول كفار مكة للواردين عليهم في الموسم، وهذا الذي يؤذن به فعل (ندلكم)؛ من أنه خطاب لمن لم يبلغهم قول النبي صلى الله عليه وسلم.

والاستفهام مستعمل في العرض، وهو عرض مكنى به عن التعجيب، أي هل ندلكم على أعجوبة من رجل ينبئكم بهذا النبأ المحال. والمعنى: تسمعون منه ما سمعناه منه فتعرفوا عذرنا في مناصبته العداء"(٣).

وقال: "فلعل المشركين كانوا يستقبلون الواردين على مكة بهذه المقالة (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) طمعا منهم بأنها تصرف الناس عن النظر في الدعوة تلبسا باستحالة هذا الخلق الجديد. ويرجح ذلك إتمامها بالاستفهام أفترى على الله كذبا أم به جنة...

وجملة (أفترى على الله كذبا أم به جنة) في موضع صفة ثانية لـ(رجل) أتوا بها استفهامية لتشريك المخاطبين معهم في ترديد الرجل بين هذين الحالين. وحذفت همزة فعل (أفترى)؛ لأنها همزة وصل فسقطت؛ لأن همزة الاستفهام وُصلت بالفعل، فسقطت همزة الوصل في الدرج"(٤).

---

(١) السراج المنير، الخطيب الشربيني، ٣/ ٢٨٠.

(٢) السراج المنير، الخطيب الشربيني، ٣/ ٢٨٠، ٢٨١.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ١٤٧.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ١٤٩، ١٥٠.

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام عند علماء التفسير:

- برز أثر الاستفهام في قوله: (هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ)، وقوله: (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ) عند علماء التفسير من أوجه، وهي:

الوجه الأول: غرض الاستفهام البلاغي:

اتفقت كتب التفسير على أن غرض الاستفهام البلاغي في (هَلْ نَدُلُّكُمْ) هو التعجب والإنكار، فالكفار ينكرون ويتعجبون من البعث، كما تبين سابقاً. كما أن الاستفهام في (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) هو للتعجب والإنكار أيضاً.

الوجه الثاني: اتفاق القراءات على قطع همزة (أ):

قرأ الجميع بقطع همزة (أَفْتَرَى)، وهو ما أشارت إليه بعض كتب التفسير، كما تقدم. فقد دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل في (أَفْتَرَى) فحذفت همزة الوصل وبقيت همزة الاستفهام (أَفْتَرَى).

الوجه الثالث: الأقوال في قائل جملة الاستفهام:

ذكرت بعض كتب التفسير أقوالاً في تعين قائل (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)، وهي:

أ- (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) من تمام قول الكافرين؛ أي القائلين: (هل ندلكم)، ورجحه ابن عاشور- كما تقدم- على أنه خطاب مشركي أهل مكة للواردين عليهم في الموسم.

ب- (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) من كلام السامع للاستفهام الأول؛ فكأنه بعد أن سمع (هل ندلكم على رجل) ردَّ قائلاً: هل افترى على الله كذباً إن كان يعتقد خلافه أم به جنة أي: جنون. فهو استفهام بينهم، يقوله بعضهم لبعض.

بينما اقتصرت أكثر كتب التفسير -كتفسير الطبري، والواحدي، والبغوي، والزمخشري- كما تقدم- على الإشارة إلى أن ذلك من كلام منكري البعث؛ يقوله بعضهم لبعض.

فظهر مما سبق أن للاستفهام في الآية أثراً في تصوير تهكم الكفار وإنكارهم؛ مما يجسد إعراضهم وعنادهم.

كما أنهم أظهر - من خلال الأقوال في قائله- شدة حرصهم على صرف الناس عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يقتصر هذا الحرص على قائل واحد بل تعدى إلى من حوله فتناقلوه بينهم؛ مما يعكس أن الكفر ملة واحدة، وإن أضمر بعضهم حقده.

المطلب الثاني: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩).

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

- قال الطبري: " أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد الجاحدون البعث بعد الممات القائلون لرسولنا محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ) إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم"(١).
- قال الواحدي: "ثم وعظهم ليعتبروا، فقال: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) [سبأ: ٩]"(٢).
- قال الزمخشري: " أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما"(٣).
- قال أبو حيان الأندلسي: " أفلم يروا: أي هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة، إلى ما بين أيديهم: أي حيث ما تصرفوا، فالسماء والأرض قد أحاطتا بهم، ولا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما"(٤).

ثم نقل قول الزمخشري معترضا بقوله: "وقال الزمخشري: أعموا فلم ينظروا، جعل بين الفاء والهمزة فعلا يصح العطف عليه، وهو خلاف ما ذهب إليه

(١) جامع البيان، الطبري، ٤٥٥/٢٠.

(٢) التفسير الوسيط، الواحدي، ٤٨٧/٣.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٥٧٠/٣.

(٤) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٥٢٢/٨.

النحويون من أنه لا محذوف بينهما، وأن الفاء للعطف على ما قبل همزة الاستفهام، وأن التقدير فألم، لكن همزة الاستفهام لما كان لها الصدر قدمت، وقد رجع الزمخشري إلى مذهب النحويين في ذلك"(١).

- قال المظهري: "(أَفَلَمْ يَرَوْا) الاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره اعموا فلم يروا، أي: لم ينظروا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ"(٢).
- قال الألوسي: "والمعنى أعموا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض"(٣).
- قال ابن عاشور: "والاستفهام للتعجيب الذي يخالطه إنكار على انتفاء تأملهم فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض"(٤).
- قال الشنقيطي: "كل ما جاء في القرآن من همزة استفهام بعدها واو العطف أو فاؤه، كقوله: (أفنضرب عنكم الذكر صفحا)، (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم)، (أفلم تكن آياتي تتلى عليكم)، وفيه وجهان معروفان عند علماء العربية:

الوجه الأول: أن الفاء والواو كلتاهما عاطفة ما بعدها على محذوف دل المقام عليه، كقولك مثلا: أنمهلكم فنضرب عنكم الذكر صفحا؟ أعموا فلم يروا إلى ما بين أيديهم؟ ألم تأتكم آياتي أفلم تكن تتلى عليكم؟ وهكذا وإلى هذا الوجه أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله: وحذف متبوع بدا هنا استبح.

الوجه الثاني: أن الفاء والواو كلتاهما عاطفة للجملة المصدرة بهمزة الاستفهام على ما قبلها، إلا أن همزة الاستفهام تزحلقت عن محلها فتقدمت على الفاء والواو، وهي متأخرة عنهما في المعنى، وإنما تقدمت لفظا عن محلها معنى؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام...

والأول: هو الأظهر. والعلم عند الله تعالى"(٥).

---

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٥٢٢/٨.

(٢) التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري، ٩/٨.

(٣) روح المعاني، الألوسي، ٢٨٦/١١.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥٢/٢٢.

(٥) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣٨٢/٢.

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام في الآية السابقة عند علماء التفسير:

- برز أثر الاستفهام البلاغي في قوله: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) عند علماء التفسير من أوجه، وهي:

الأول: غرض الاستفهام:

اتفقت كتب التفسير على أن: الاستفهام في (أَفَلَمْ يَرَوْا) للإنكار والتوبيخ، وهو ما صرحت به بعض كتب التفسير، وأشارت إليه أخرى من خلال المعنى.

الثاني: موضع همزة الاستفهام، وتقدير جملة محذوفة بعدها:

ظهر أثر الاستفهام في هذه الآية على كتب التفسير من خلال: موضع همزة الاستفهام، وتقدير جملة محذوفة بعدها؛ فقد وقع خلاف في كتب التفسير في موضع همزة الاستفهام، وتقدير الكلام على صورتين:

الأولى: قدَّر بعضهم جملة محذوفة بعد همزة الاستفهام وهو (عموا)، ثم عطف بالفاء ما بعدها على الجملة المحذوفة، فكان المعنى: (أعموا فلم يروا).

الثانية: لا يوجد محذوف؛ فإن الفاء عاطفة للجملة التي بعدها (أفلم ينظروا) على الجملة التي في الآية السابقة (الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال بعيد)، وقد وضحه ابن الحاجب بقوله: "ويجوز أن تكون الفاء لبيان أن ما قبلها سبب لإنكار ما وقع بعدها. ألا ترى أن قبل قوله: أفلم يروا، ذكر أنهم في الضلال البعيد، فنبه بالفاء على أن الضلال سبب لإنكار كونهم"(١).

فهذا الخلاف قد ظهر عند علماء التفسير؛ إذ أوضح أكثرهم المعنى الثاني؛ أي: (دون تقدير فعل محذوف) كما تقدم، ونسبه أبو حيان إلى جمهور النحاة.

وأوضح بعضهم المعنى الأول؛ أي: بتقدير فعل (عموا): (أعموا فلم يروا)، وهو ما نص عليه الزمخشري وغيره، وأجازه ابن مالك، كما تقدم.

(١) أمالي ابن الحاجب، ١٩٢/١.

المطلب الثالث: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى: (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ):

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

- قال أبو بكر النيسابوري: "الكسائي وحده يدغم لام (هل) في نون (نجازي)؛ والآخرون لا يدغمون"(١).
- قال ابن قتيبة: "(وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ) قال طاوس: يجازي ولا يغفر له، والمؤمن لا يناقش الحساب"(٢).
- قال الزمخشري: "المعنى: مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر، وهو العقاب العاجل، وقيل: المؤمن تكفر سيئاته بحسناته، والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من السوء، ووجه آخر: وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة، يستعمل تارة في معنى المعاقبة، وأخرى في معنى الإثابة، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله جَزَيْناهُمْ بما كَفَرُوا بمعنى: عاقباهم بكفرهم. قيل: وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ بمعنى: وهل يعاقب؟ وهو الوجه الصحيح، وليس لقائل أن يقول: لم قيل: وهل يجازى إلا الكفور، على اختصاص الكفور بالجزاء، والجزاء عام للكافر والمؤمن، لأنه لم يرد الجزاء العام، وإنما أراد الخاص وهو العقاب"(٣).
- قال أبو عبد الله الكناني: "المراد: هل يجازى بالظلم والمعاصي حتما إلا الكفور، لأن المؤمن قد يعفى عنه، فلا يجازى بمعصية تفضلا عليه، ولشرف الإيمان"(٤).
- قال أبو حيان الأندلسي: "هل: هنا للنفي، المعنى: ما ينظرون، ولذلك دخلت إلا، وكونها بمعنى النفي إذ جاء بعدها: إلا، كثير الاستعمال في القرآن، وفي كلام العرب، قال تعالى: وهل نجازي إلا الكفور"(٥).

---

(١) المبسوط في القراءات العشر، أبو بكر النيسابوري، ص٣٦٢.

(٢) غريب القرآن، ابن قتيبة، ص٣٠٦.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٥٧٣/٣.

(٤) كشف المعاني من المتشابه من المثاني، ص٣٠٢.

(٥) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٣٤٢/٢.

- قال الألوسي: "أي ما نجازي مثل هذا الجزاء الشديد المستأصل إلا المبالغ في الكفران أو الكفر، فلا يتوجه على الحصر إشكال أن المؤمن قد يعاقب في العاجل. وفي الكشاف لا يراد أن المؤمن أيضا يعاقب فإنه ليس بعقاب على الحقيقة بل تمحيص ولأنه أريد المعاقبة بجميع ما يفعله من السوء، ولا كذلك للمؤمن، ولا مانع من أن يكون الجزاء عاما في كل مكافآت وأريد به المعاقبة مطلقا من غير تقييد بما سبق لقرينة جَزَيْناهُمْ بما كَفَرُوا لتعيين المعاقبة فيه بل قال الزمخشري: هو الوجه الصحيح وذلك لعدم الإضمار"(١).
- قال ابن عاشور: "والاستفهام في (وهل يجازى) إنكاري في معنى النفي كما دل عليه الاستثناء... والمعنى: ما يجازى ذلك الجزاء إلا الكفور لأن ذلك الجزاء عظيم في نوعه، أي نوع العقوبات فإن العقوبة من جنس الجزاء. والمثوبة من جنس الجزاء فلما قيل ذلك جزيناهم بما كفروا تعين أن المراد: وهل يجازى مثل جزائهم إلا الكفور، فلا يتوهم أن هذا يقتضي أن غير الكفور لا يجازى على فعله، ولا أن الثواب لا يسمى جزاء ولا أن العاصي المؤمن لا يجازى على معصيته، لأن تلك التوهمات كلها مندفعة بما في اسم الإشارة من بيان نوع الجزاء، فإن الاستئصال ونحوه لا يجري على المؤمنين"(٢).
- قال الشنقيطي بياناً لما قد يُشكل في فهم هذه الآية من حصر الجزاء بالكافر، وغيرها من الآيات التي دلت على أن المرء عموما سيجازى بمثقال الذرة، فقال: " والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: أن المعنى ما نجازي هذا الجزاء الشديد المستأصل إلا المبالغ في الكفران.

الثاني: أن ما يفعل بغير الكافر من الجزاء ليس عقابا في الحقيقة، لأنه تطهير وتمحيص.

الثالث: أنه لا يجازى بجميع الأعمال مع المناقشة التامة إلا الكافر"(٣).

- قال الشوكاني: "وهل نجازي هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة إلا الشديد الكفر المتبالغ فيه. وقال قوم: إن معنى الآية أنه لا يجازي هذا الجزاء، وهو الاصطلام (الاستئصال) والإهلاك إلا من كفر. وقال مجاهد: إن المؤمن يكفر

(١) روح المعاني، الألوسي، ٣٠٢/١١.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧٤/٢٢.

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، ص١٩٠.

عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل عمل عمله. وقال طاوس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش. وقال الحسن: إن المعنى إنه يجازي الكافر مثلا بمثل ورجح هذا الجواب النحاس"(١).

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام في الآية السابقة عند علماء التفسير:

برز أثر الاستفهام البلاغي في قوله: (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) عند علماء التفسير في ثلاثة أوجه، وهي:

الوجه الأول: غرض الاستفهام في الآية:

اتفقت كتب التفسير على أن: الاستفهام في :(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)للإنكار يراد به النفي، وهو ما صرحت به بعض كتب التفسير، وأشارت إليه أخرى من خلال المعنى.

الوجه الثاني: فهم ما يشكل:

ظهر أثر الاستفهام في هذه الآية على كتب التفسير من فهم المشكل، وأوجه الجمع بين هذه الآية التي حصرت هذا الجزاء بالكفور، وغيرها من الآيات التي دلت على العبد يجازى بعلمه مؤمنا أو كافرا، كقوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) الزلزلة: ٧ - ٨

وقد تقدم أن أكثر كتب التفسير أشارت إلى أن ذلك الجزاء من الهلاك والاستئصال خاص بالكافر.

وذكرت غيرها أن الكافر يجازى بجميع أعماله، وأما المؤمن فقد يغفر له بإيمانه.

بينما فصلت بعضها أوجه الجمع بما تقدم كالشنقيطي وغيره.

فتبين مما سبق أن الاستفهام الدال على النفي في الآية ومجيء (إلا)- قد أفاد الحصر والقصر، وبناء عليه ظهر ما قد يُشكل مع آيات أخرى فكان الجمع بينها بما يزول الإشكال كما تقدم.

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٣٦٩/٤.

الوجه الثالث: الاختلاف في القراءة:

أشارت بعض الكتب لا سيما كتب القراءات إلى أن الكسائي قرأ (هل) فانفرد بإدغام حرف اللام مع حرف النون في (نجازي) عن غيره من القراء، كما تقدم.

فكان لحرف الاستفهام في هذه الآية أثر في القراءات.

المطلب الرابع: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى: (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

- قال الطبري: "واختلف أهل التأويل في الموصوفين بهذه الصفة من هم؟ وما السبب الذي من أجله فزِّع عن قلوبهم؟

فقال بعضهم: الذي فزع عن قلوبهم الملائكة، قالوا: وإنما يفزِّع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم الله بالوحي...

وقال آخرون ممن قال: الموصوفون بذلك الملائكة، إنما يفزع عن قلوبهم فزعُهم من قضاء الله الذي يقضيه حذرًا أن يكون ذلك قيام الساعة.

وقال آخرون: بل الموصوفون بذلك المشركون، قالوا: وإنما يفزِّع الشيطان عن قلوبهم، قال: وإنما يقولون: ماذا قال ربكم عند نزول المنية بهم...

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب القول الذي ذكره الشعبي عن ابن مسعود (يريد بذلك القول الأول) وإذ كان ذلك كذلك، فمعنى الكلام: لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع عنده، فإذا أذن الله لمن أذن له أن يشفع فزع لسماعه إذنه، حتى إذا فزِّع عن قلوبهم فجلِّيَ عنها، وكشف الفزع عنهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالت الملائكة: الحق"(١).

وبنحو هذه الأقوال نقل الرازي(٢)، والقرطبي(٣)، والأبو حيان الأندلسي(٤).

---

(١) جامع البيان، الطبري، ٣٩٦/٢٠- ٤٠٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠٤/٢٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٩٨/١٤.

(٤) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٥٤٥/٨.

- قال الزمخشري: "حتى إذا فزع عن قلوبهم، أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن: تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا ماذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا: قال الْحَقَّ، أي القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى"(١).

- قال ابن عاشور: "والتفزيع يحصل لهم بانكشاف إجمالي يلهمونه فيعلمون بأن الله أذن بالشفاعة ثم يتطلبون التفصيل بقولهم: ماذا قال ربكم ليعلموا من أذن له ممن لم يؤذن له، وهذا كما يكرر النظر ويعاود المطالعة من ينتظر القبول، أو هم يتساءلون عن ذلك من شدة الخشية فإنهم إذا فزع عن قلوبهم تساءلوا لمزيد التحقق بما استبشروا به فيجابون أنه قال الحق"(٢).

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام في الآية السابقة عند علماء التفسير:

برز أثر الاستفهام البلاغي في قوله: (قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِير) عند علماء التفسير في اختلاف الأقوال في منسوب جملة: (ماذا قال ربكم)، وهي:

القول الأول: هم الملائكة، بعد أن ذهب الفزع عن قلوبهم تنادوا: (ماذا قال ربكم)، وهو ترجيح الطبري في كتابه جامع البيان.

القول الثاني: هم الشافعون والمشفوع لهم، بعد أن ذهب الفزع عن قلوبهم تباشروا فتنادوا: (ماذا قال ربكم)، وهو ما اقتصر على ذكره الزمخشري في كتابه الكشاف.

القول الثالث: هم المشركون، يقولون: ماذا قال ربكم عند نزول المنية بهم.

المطلب الخامس: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

(١) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٨٠.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ١٨٩.

- قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم الأوثان والأصنام: من يرزقكم ...
وترك الخبر عن جواب القوم؛ استغناء بدلالة الكلام عليه، ثم ذكره، وهو: فإن قالوا: لا ندري، فقل: الذي يرزقكم ذلك الله"(١).

- قال الواحدي: "والمعنى: استفهِم عن الرزاق، ثم أخبرْ أني أنا الرزاق، وذلك أنه إذا استفهم لم يمكنهم أن يثبتوا رازقًا غير الله، فثبت الحجة عليهم بقوله - صلى الله عليه وسلم- ، أي: هو الله.

وقيل: هذا محمول على أنه لما أمر بقوله: (مَنْ يَرْزُقُكُمْ) بعد الأمر قل لهم ذلك، فقالوا له: فمن يرزقنا، فأجابهم الله بقوله :(قُلِ اللَّهُ) وتم الكلام، ثم أمره بأن يخبرهم أنهم على الضلال"(٢).

- قال الزمخشري: "أمره بأن يقررهم بقوله: (مَنْ يَرْزُقُكُمْ)، ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله؛ وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم"(٣).

- قال ابن عطية: "أمر الله تعالى نبيه على جهة الاحتجاج وإقامة الدليل على أن الرزاق لهم من السماوات والأرض من هو؟ ثم أمره أن يقتضب الاحتجاج بأن يأتي جواب السؤال إذ هم في بهتة ووجمة من السؤال، وإذ لا جواب لهم ولا لمفطور إلا بأن يقول هو الله، وهذه السبيل في كل سؤال جوابه في غاية الوضوح، لأن المحتج يريد أن يقتضب ويتجاوز إلى حجة أخرى يوردها"(٤).

- قال البيضاوي: "(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) يريد به: تقرير قوله: (لاَّ يَمْلِكُونَ). (قُلِ اللَّهُ) إذ لا جواب سواه، وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا أو تلعثموا في الجواب مخافة الإلزام فهم مقرون به بقلوبهم"(٥).

---

(١) جامع البيان، الطبري، ٤٠١/٢٠.

(٢) التفسير البسيط، الواحدي، ٣٦٢/١٨.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٥٨١/٣.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤١٩/٤.

(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٤٧/٤.

- قال الألوسي: "أمر صلّى الله عليه وسلم أن يقول ذلك تبكيتا للمشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وإن الرزاق هو الله عزّ وجلّ فإنهم لا ينكرونه وحيث كانوا يتلعثمون أحيانا في الجواب مخافة الإلزام قيل له عليه الصلاة والسّلام قُلِ اللَّهُ إذ لا جواب سواه عندهم " (١)

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام في الآية السابقة عند علماء التفسير:

برز أثر الاستفهام في قوله: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) عند علماء التفسير في اتفاقهم على أن الاستفهام في الآية هو للتقرير؛ فإن في سؤالهم مَن الرازق؟ إقرار بأن معبودات المشركين لا تملك من ذلك شيئاً، وهو مُقِّرون بذلك ومعترفون في قلوبهم. وبدون هذا الاستفهام ما تحقق هذا المعنى.

وجزمتْ أكثر كتب التفسير- كما تقدم- إلى أن المشركين لن يصرحوا بالجواب، بينما أشارت بعضها إلى أنهم إن قالوا: لا ندري، فقل لهم يا محمد، الذي يرزقكم ذلك الله.

المطلب السادس: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

- قال الطبري: " ويقول هؤلاء المشركون بالله إذا سمعوا وعيد الله الكفار وما هو فاعل بهم في معادهم مما أنزل الله في كتابه (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) جائيًا، وفي أي وقت هو كائن (إِنْ كُنْتُمْ) فيما تعدوننا من ذلك (صَادِقِينَ) أنه كائن، قال الله لنبيه: (قُلْ) لهم يا محمد (لَكُمْ) أيها القوم (مِيعَادُ يَوْمٍ) هو آتيكم"(٢).
- قال ابن عطية: "حكى عنهم مقالتهم في الهزء بأمر البعث واستعجالهم على معنى التكذيب بقولهم مَتى هذَا الْوَعْدُ فأمر الله تعالى نبيه أن يخبرهم عن مِيعادُ هو يوم القيامة لا يتأخر عنه أحد ولا يتقدمه"(٣).

(١) روح المعاني، الألوسي، ٣١٣/١١.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٤٠٦/٢٠.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية،٤٢٠/٤.

- قال الرازي: "قوله: (متى هذا الوعد) أي متى يقع الموعود به؟

ثم أورد إشكالا بقوله:

" (إنْ) للشرط وهي تستدعي جزاء، و(متى) استفهام لا يصلح جزاء، فما الجواب؟ نقول: هي في الصورة استفهام، وفي المعنى إنكار كأنهم قالوا إن كنتم صادقين في وقوع الحشر فقولوا متى يكون"(١).

- قال أبو العباس التونسي (ت٥٨٣٠): "أي إنْ كنتم صادقين فَأَخْبِرُونا متى هذا الوعد؟؛ لأنّ (متى) استفهام لا يصلُح جزاء"(٢).

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام في الآية السابقة عند علماء التفسير:

برز أثر الاستفهام في قوله: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) عند علماء التفسير في وجهين:

الوجه الأول: اتفقت كتب التفسير- فيما يُفهَم- على أن غرض الاستفهام في الآية هو استهزاء واستبعاد وجحد وقوع الموعود وهو العذاب أو البعث.

الوجه الثاني: أشارت بعض كتب التفسير إلى (مشكل القرآن) في الآية، وهو أن (إنْ) للشرط تستدعي الجزاء، و(متى) استفهام لا يصلح جزاء، فكان الجواب ما نقلته بعض كتب التفسير كما تقدم من أن هذا الاستفهام غرضه الإنكار والمعنى، أي: إن كنتم صادقين فأخبرونا متى يأتي. فصرحت بعض الكتب بهذا الأشكال، وسكتت عنه أخرى مقتصرةً على بيانه ضمناً من خلال ذكر معنى الآية.

المطلب السابع: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢)

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

- قال الطبري: "(أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى) ومنعناكم من اتباع الحق (بَعْدَ إِذْ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٨٩/٢٦.

(٢) نكت وتنبيهات في تفسير القرآن، أبو العباس البسيلي التونسي، ٤٥٥/٣.

جَاءَكُمْ) من عند الله يبين لكم (بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) فمنعكم إيثاركم الكفر بالله على الإيمان من اتباع الهدى، والإيمان بالله ورسوله"(١).

- قال الزمخشري: "الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان، وإثبات أنهم هم الذين صدّوا بأنفسهم عنه، وأنهم أتوا من قبل اختيارهم، كأنهم قالوا: أنحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بعد أن صممتم على الدخول في الإيمان وصحت نياتكم في اختياره؟ بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى"(٢).
- قال ابن عطية: "فقال لهم الرؤساء على جهة التقرير والتكذيب أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ أي دخلتم في الكفر ببصائركم"(٣).
- قال ابن عاشور: "وهمزة الاستفهام مستعملة في الإنكار على قول المستضعفين تبرؤا منه. وهذا الإنكار بهتان وإنكار للواقع بعثه فيهم خوف إلقاء التبعة عليهم وفرط الغضب والحسرة من انتقاض أتباعهم عليهم وزوال حرمتهم بينهم فلم يتمالكوا أن لا يكذبوهم ويذيلوا بتوريطهم.

وأتى بالمسند إليه قبل المسند الفعلي في سياق الاستفهام الإنكاري الذي هو في قوة النفي ليفيد تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي على طريقة: ما أنا قلت هذا، والمعنى ما صددناكم"(٤).

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام في الآية السابقة عند علماء التفسير:

برز أثر الاستفهام في قوله: (أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى) عند علماء التفسير من وجهين:

الوجه الأول: صرحت أكثر كتب التفسير بالغرض من الاستفهام في الآية، وهو الإنكار كما في بعضها، وفي أخرى- كما تقدم- أن الغرض هو التقرير والتكذيب، وهما متقاربان.

---

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٠/٤٠٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٨٤.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٤٢١.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/٢٠٦.

بينما أشار بعضها إلى الغرض إشارة دون تصريح وذلك من خلال عرض المعنى العام للآية.

الوجه الثاني: أضاف كتاب التحرير والتنوير دلالة تقديم المسند إليه (نحن) على المسند (الصدِّ) في صددناكم، في سياق الاستفهام الإنكاري، ليفيد تخصيصهم بالصدِّ، فقال: "أتى بالمسند إليه قبل المسند الفعلي في سياق الاستفهام الإنكاري الذي هو في قوة النفي؛ ليفيد تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي على طريقة: ما أنا قلت هذا، والمعنى ما صددناكم"(١).

فكان للاستفهام في هذه الآية أثر في طريقة عرض الغرض منه؛ إذ عرضته بعض الكتب صراحة، بينما أشارت إليه أخرى إشارة.

كما انفرد بعضها بإضافة دلالات أخرى، مما يظهر أثر هذا الأسلوب على كتب التفسير.

المطلب الثامن: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

- قال الواحدي: "استفهام معناه التوبيخ، والتقدير: إلا جزاء ما كانوا يعملون (٢).
- قال الراغب الأصفهاني: "(هل) حرف استخبار إما على سبيل الاستفهام وذلك لا يكون من الله عزّ وجلّ، وإمّا على التّقرير تنبيهًا، أو تبكيتًا، أو نفياً". ثم أتي بصور للنفي ومنها: (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)" (٣).

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠٦/٢٢.

(٢) التفسير البسيط، الواحدي، ٣٧٠/١٨.

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، ص٨٤٣.

-قال ابن عطية كما نقل عنه أبو حيان الأندلسي(١): "والظاهر أنه استفهام بمعنى النفي ولذلك دخلت إلا"(٢).

- قال الرازي: "فيه حذف، والتقدير: هل يجزون إلا بما كانوا يعملون؟ أو على ما كانوا يعملون"(٣).

-قال أبو حيان الأندلسي: "(هل يجزون) استفهام بمعنى التقرير، أي يستوجبون بسوء فعلهم العقوبة"(٤).

- قال ابن كثير: "إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه؛ للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم"(٥).

- قال أبو زهرة: "الاستفهام هنا إنكاري لإنكار الوقوع بمعنى النفي، وفيه معنى تأكيد النفي بمعنى أنه لَا يتصور إلا أن يجزون بعملهم، فهو نفي فيه معنى حصر العقاب فيهم"(٦).

- قال ابن عاشور: "الاستفهام ب هل مشرب معنى النفي، وقد جعل من معاني (هل) النفي"(٧).

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام في الآية السابقة عند علماء التفسير:

برز أثر الاستفهام البلاغي في قوله: (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) عند علماء التفسير من وجهين:

الوجه الأول: الغرض من الاستفهام؛ فمنهم من جعله استفهاما بمعنى التقرير؛ أي يستوجبون بسوء فعلهم العقوبة، ومنهم من جعله استفهاماً بمعنى النفي، وهو استفهام إنكاري.

---

(١) لم أقف عليه في كتاب المحرر الوجيز لابن عطية، ولعل أبا حيان الأندلسي فهمه من مواضع أخرى من كتاب ابن عطية غير هذه الآية الكريمة.

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ١٧٥/٥

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٦٧/١٥.

(٤) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ١٧٥/٥.

(٥) تفسير ابن كثير، ٤٦٠/٦.

(٦) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٢٩٥٢/٦.

(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠٨/٩.

الوجه الثاني: التقدير في الكلام: أشارت كتب التفسير إلى أن في الكلام حذفاً، فمنهم من قدَّره بجزاء، أي: هل يجزون إلا جزاء ما كانوا يعملون، منهم من قدره بحرف الباء أو على، أي: هل يجزون إلا بما كانوا يعملون؟ أو على ما كانوا يعملون. ومنهم من أشار إلى المقدر من خلال عرض المعنى العام دون تصريح بجزاء أو نحوه، وكلها لا تخرج عن أن في الكلام حذفاً.

المطلب التاسع: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

- قال يحيى بن سلام: "(ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون): يجمع الله يوم القيامة بين الملائكة ومن عبدها فيقول للملائكة: (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) على الاستفهام وهو أعلم بذلك منهم"(١).
- قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: "ليست بألف الاستفهام بل هي تقرير للذين عبدوا الملائكة"(٢) يريد: أن الاستفهام ليست على حقيقته، بل للتقرير.
- قال الواحدي: "معنى هذا الاستفهام كالذي في قوله لعيسى: (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِ) (٤) الآية، وهو استفهام توبيخ للعابدين"(٣).
- قال البغوي: "(ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) في الدنيا، قال قتادة: هذا استفهام تقرير، كقوله تعالى لعيسى: (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) مريم:١١٦، فتتبرأ منهم الملائكة"(٤). وهو ما نقله الطبري(٥).

(١) تفسير يحيى بن سلام، ٧٦٧/٢.

(٢) مجاز القرآن، معمر بن المثنى، ١٥٠/٢.

(٣) التفسير البسيط، الواحدي، ٣٧٧/١٨.

(٤) معالم التنزيل، البغوي، ٤٠٤/٦.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤١٤/٢٠.

- قال الزمخشري: "هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار"(١).
- قال الرازي: "(ويوم يحشرهم جميعاً) يعني المكذبين بك وبمن تقدمك، ثم نقول لمن يدعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة، فإن غاية ما ترتقي إليه منزلتهم أنهم يقولون نحن نعبد الملائكة والكواكب، فيسأل الملائكة أهم كانوا يعبدونكم! إهانة لهم"(٢). يريد: إهانة للمكذبين.
- قال أبو حيان: "وسؤاله تعالى وهو عالم بالمسئول عنه ليجيبوا بما أجابوا به فيبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فيزيد حسرتهم"(٣).
- قال ابن عاشور: "(يعبدون): الجن والملائكة، والاقتصار على تقرير الملائكة واستشهادهم على المشركين لأن إبطال إلهية الملائكة يفيد إبطال إلهية ما هو دونها ممن عُبد من دون الله بدلالة الفحوى، أي بطريق الأولى فإن ذلك التقرير من أهم ما جعل الحشر لأجله.

وتوجيه الخطاب إلى الملائكة بهذا الاستفهام مستعمل في التعريض بالمشركين على طريقة المثل (إياك أعني واسمعي يا جارة).

والإشارة بـ (هؤلاء) إلى فريق كانوا عبدوا الملائكة والجن ومن شايعهم على أقوالهم من بقية المشركين"(٤).

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام في الآية السابقة عند علماء التفسير:

برز أثر الاستفهام في قوله: (أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ) عند علماء التفسير في وجهين:

الوجه الأول: الغرض من الاستفهام؛ فأشارت بعض كتب التفسير إلى أنه استفهام تقرير للكفار، وبينت أخرى أن في الاستفهام توبيخاً وإهانة وتقريعاً للكفار، وزيادة حسرة لهم، فكان لأسلوب الاستفهام في الآية أثر إبراز وتجسيد صورة التوبيخ والتقريع والإهانة.

الوجه الثاني: دلالة الاقتصار على (المخاطب بالاستفهام) وهم الملائكة دون غيرهم من معبودات المشركين، فقد انفرد كتاب التحرير والتنوير- فيما اطلعت- بالإشارة

---

(١) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٨٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١١/٢٥.

(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٩٠/٨.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢٢/٢٢.

إلى أن الاستفهام في الآية قد اقتصر على الملائكة دون المعبودات الأخرى للمشركين، وعلل ذلك –بما تقدم– بأن إبطال إلهية الملائكة يفيد إبطال إلهية ما هو دونها ممن عُبدَ من دون الله بدلالة الفحوى، أي بطريق الأولى فإن ذلك التقرير من أهم ما جعل الحشر لأجله. وفيه تعريض بالمشركين على طريقة المثل (إياك أعني واسمعي يا جارة).

المطلب العاشر: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى: (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٤٥)

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

- قال ابن عطية: "(كيف): تعظيم للأمر وليست استفهاما مجردا، وفي هذا تهديد لقريش أي أنّهم معرضون لنكير مثله"(١).
- قال الواحدي: " (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ): استفهام معناه التقرير، والنكير اسم من الإنكار. يقول: كيف أنكرت عليهم بالعقوبة. ألم أبدلهم بالنعمة نقمة"(٢).
- قال الرازي: "(فكيف كان نكير): استفهام تقريري، أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب، أليس كان واقعا قطعا؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتا وبالعمارة خرابا؟ ألست أعطيت الأنبياء جميع ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الأرض.

فينبغي أن تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم، فإنه تعالى إنما يمهل للمصلحة فلا بد من الرضاء والتسليم، وإن شق ذلك على القلب. واعلم أن بدون ذلك يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول عليه السلام، فكيف بذلك مع منزلته، لكنه في كل وقت يصل إليه من جهتهم ما يزيده غما، فأجرى الله عادته بأن يصبره حالا بعد حال، وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وبأي جنس من عذاب الاستئصال هلكوا"(٣).
- قال القرطبي: " (فكيف كان نكير) استفهام بمعنى التغيير، أي فانظر كيف كان

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤٢٥/٤.

(٢) التفسير البسيط، الواحدي، ٤٣٨/١٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٣١/٢٣.

تغييري ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك، فكذلك أفعل بالمكذبين من قريش"(١).

- قال أبو حفص الحنبلي: "أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب، وهذا استفهام تقرير، أي؛ أليس كان واقعا قطعا، أبدلتهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالحياة موتا، وبالعمارة خرابا"(٢).
- قال المظهري: "استفهام للتعجيب أو التهويل أو التقرير، أي هو واقع موقعه"(٣).

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام في الآية السابقة عند علماء التفسير:

برز أثر الاستفهام في قوله: (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) عند علماء التفسير من وجهين:

الوجه الأول: الغرض من الاستفهام؛ فأشارت بعض كتب التفسير إلى أنه استفهام تقريري؛ أي: كيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة، وبينت أخرى أن في الاستفهام تعظيماً وتهويلاً للأمر، أي أن قريشاً ومن على شاكلتهم معرَّضون لنكير وعذاب مثله. وفيه تعريض لهم سينزل بهم.

الوجه الثاني: الإيجاز في الاستفهام الإنكاري في قوله: (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) بألفاظه الوجيزة التي اختزلت في طياتها جملاً كثيرة منها ما صرح بها الرازي بقوله: " فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب، أليس كان واقعا قطعا؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتا وبالعمارة خرابا؟ ألست أعطيت الأنبياء جميع ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الأرض.

كما اختزل فيه إشاراتٍ وصوراً في التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وطمأنته.

فكان لأسلوب الاستفهام في الآية أثر في تنوع المعاني المختلفة التي دل عليها؛ إذ دل على تقرير العذاب والإنكار وتحققه، ودل على تعظميه وتهويله، وألمح إلى ما سيقع بكفار قريش إن سلكوا ذلك المسلك الذي نهى عنه. وما تضمنه من تسلية وطمأنة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو كذلك لأهل الإيمان ودعاة الخير.

المطلب الحادي عشر: أثر الاستفهام البلاغي في توضيح المقاصد القرآنية من قوله تعالى: (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧٣/١٢.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن عادل الحنبلي، ١٠٧/١٤.

(٣) التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري، ٣٣١/٦.

أولاً: أقوال المفسرين في توضيح المقاصد القرآنية وفق الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام:

قال الطبري: "معنى ذلك: وقالوا آمنا بالله، في حين لا ينفعهم قبل ذلك، فقال الله (وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ)؛ أي: وأين لهم التوبة والرجعة، أي: قد بعدت عنهم، فصاروا منها كموضع بعيد أن يتناولوها"(١).

- قال البغوي: "(وأنى) من أين، (لهم التناوش)...ومعناه التناول، أي: كيف لهم تناول ما بعد عنهم، وهو الإيمان والتوبة، وقد كان قريبا في الدنيا فضيعوه"(٢).
- قال الراغب الأصفهاني: " أي: كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد، ولم يكونوا يتناولونه عن قريب في حين الاختيار والانتفاع بالإيمان"(٣).
- قال الزمخشري: "وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا: مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة (بعيد)"(٤).
- قال الرازي: "(قالوا آمنا وأنى لهم التناوش) أي كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون إلا في الدنيا وهم في الآخرة"(٥).
- قال القرطبي: "أنى لهم تناول الإيمان في الآخرة وقد كفروا في الدنيا"(٦).
- قال ابن كثير: "أي وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء"(٧).

ثانياً: الغرض البلاغي من الاستفهام في الآية السابقة عند علماء التفسير:

برز أثر الاستفهام في قوله: (وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) عند علماء التفسير في وجهين:

الوجه الأول: معنى (أنى) في الآية:

---

(١) جامع البيان، الطبري، ٤٢٦/٢٠.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٤٠٦/٦.

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، ص٨٢٩.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ٥٩٣/٣.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١٧/٢٥.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣١٦/١٤.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٦٧/٦.

ذكرت بعض كتب التفسير أن معناه (كيف)، وجمعت أخرى بين معنى (من أين)، و(كيف)؛ وذلك لأن المعنيين متقاربان، ولذا قال ابن قتيبة بعد أن عرض المعنيين لـ(أنى):" والمعنيان متقاربان، يجوز أن يتأول في كل واحد منهما الآخر"(١).

الوجه الثاني: غرض الاستفهام في الآية:

اتفقت كتب التفسير- فيما نقلت من معنىً للآية- على أن الاستفهام ليس على حقيقته، وإنما هو على جهة الاستبعاد والاستحالة.

فاستعمل القرآن أسلوب الاستفهام في الآية لأمر مستحيل حصوله، فكان أبلغ في عرض المعنى المراد الآية وبيانه.

ولم يقتصر غرض الاستفهام في الآية على الإنكار والاستبعاد، وإنما تعدى إلى غرض آخر يفُهم مما نقلت كتب التفسير، وهو التوبيخ والتأنيب لحالهم، وتلك صورة من صور العذاب النفسي.

لم تكن لتبرز تلك الصورة لحاهم المشؤوم دون هذا الأسلوب، وهو ما بينه الزمخشري- كما تقدم- بقوله: "وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا: مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة (بعيد)"(٢).

فتبين مما سبق أن أسلوب الاستفهام في الآية الكريمة قد كشف عن معانٍ ودلالات لم تكن لتتجلى دونه.

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص٢٨٠.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٣/٥٩٣.

الخاتمة:

وفيها أهم النتائج والتوصيات، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: النتائج: من خلال ما سبق نجمل النتائج الآتية:

- تكرر أسلوب الاستفهام في سورة سبأ في اثنتي عشرة آية، فجمع بين أدوات الاستفهام: (الهمزة، هل، مَن، ما، أنى، متى، كيف).
- تنوعت أغراض الاستفهام في السورة فخرج عن غرضه الحقيقي إلى الإنكار والتعجب والنفي والتقرير والتوبيخ والاستهزاء والاستبعاد، والتهديد.
- برز أسلوب الاستفهام في سورة سبأ في تصوير إنكار الكفار لحقيقة البعث، مما جسَّد شدة إعراضهم وعنادهم، وأبان عن شدة حرصهم على صرف الناس عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فتناقلوا ذلك وأذاعوه؛ مما يؤكد على أن الكفر ملة واحدة، وإن أضمر بعضهم حقده.
- جسَّد أسلوب الاستفهام في سورة سبأ الحجج والبراهين الدالة على إثبات البعث؛ مستخدماً غرض الإنكار والتوبيخ والتعجب من حال إغفال عقول الكفار لتلك الأدلة.
- أسهم أسلوب الاستفهام في تصوير إبطال قدرة المعبودات من دون الله في الخلق والرزق، وإبراز جزاء الكفار وعقابهم.
- أبان أسلوب الاستفهام في السورة عن الإيلام النفسي الذي يتعرض له الكفار والمشركون يوم القيامة، وما ينتابهم من الحسرة والإهانة.
- أثَّر أسلوب الاستفهام في اختلاف المقاصد القرآنية عند علماء التفسير في سورة سبأ من خلال الآتي:

أ- اختلاف ألفاظ كتب التفسير في عرض غرض الاستفهام البلاغي، مع تقارب في المعنى والدلالة، وهو عند أكثر علماء التفسير.

ب- بيان ما تعلق بالقراءات، وذلك في موضعين.

ج- الاختلاف في تقدير محذوف بعد حرف الاستفهام، وذلك في موضع واحد.

د- الاختلاف في نسبة جملة الاستفهام إلى (قائلها)، وذلك في موضع واحد.

ه- بيان ما يشكل من القرآن الكريم، وذلك في موضعين.

وبالجملة فإن أسلوب الاستفهام في السورة بما تضمن من ألفاظ قليلة فإنه يحمل في مضمونه وطياته معاني كثيرة، وتلك صورة من صور بلاغة القرآن الكريم، وجانب واحد من جوانب إعجازه، مما أثر ذلك في كتب التفسير وأظهر جليا المقاصد القرآنية المتعلقة بالغرض البلاغي من أسلوب الاستفهام في سورة سبأ.

ثانياً: التوصيات:

أوصي الدارسين بإجراء دراسات مماثلة في القرآن الكريم؛ بحيث يفرد كل أسلوب في دراسة مستقلة للوقوف على أثر ذلك الأسلوب في كتب التفسير. كما أوصي مراكز الأبحاث ومؤسسات الدراسات العلمية بتبني مشروع بحثي يشمل الأساليب البيانية في القرآن الكريم وأثرها في توضيح المقاصد القرآنية عند علماء التفسير.

فهرس المراجع:

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧ه)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢ه.
- ابن الحاجب، عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس ابن الحاجب (ت: ٦٤٦ه)، الأمالي، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٩ ه، ١٩٨٩م.
- ابن سلام، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم (ت: ٢٢٤ه)، غريب الحديث، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ط١، ١٣٨٤ ه، ١٩٦٤م.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت: ٥٤٢ه)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت: ٢٧٦ه)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤ه)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩ه.
- ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد (ت: ٧٦١ه)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥م.
- أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت: ١٣٩٤هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى البصري (ت: ٢٠٩هـ)، المحقق: محمد فواد، مكتبة الخانجى – القاهرة، ١٣٨١ هـ.
- الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط١ - ١٤١٢ هـ.
- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله (ت: ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المحقق: علي عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥ه.
- البسيلي، أبو العباس البسيلي التونسي (ت ٨٣٠ هـ)، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: محمد الطبراني، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٤٢٩ هـ.

- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠ه)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخران، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ه.
- البيضاوي، عبد الله بن عمر (ت: ٦٨٥ه)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨ ه.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت: ٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المحقق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٢ه.
- الحموي، أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة (ت: ٧٣٣هـ)، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: عبد الجواد خلف، دار الوفاء . المنصورة، ط١، ١٤١٠ هـ.
- الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين (ت: ٦٠٦ه)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ه.
- الرماني، علي بن عيسى، (ت: ٣٨٤هـ)، رسالة منازل الحروف، المحقق: إبراهيم السامرائي، دار الفكر – عمان.
- الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم (ت: ١٣٦٧هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي وشركاه، ط٣.
- الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد، (ت: ٥٣٨ه)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ه.
- السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي (ت: ٦٢٦ه)، مفتاح العلوم، تعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ ه، ١٩٨٧م.
- الشربيني، محمد بن أحمد الشربيني، تفسير السراج المنير، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار (ت : ١٣٩٣هـ)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، ط١، ١٤١٧ هـ.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار (ت : ١٣٩٣هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، لبنان، ١٤١٥ هـ.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت: ٥٣١٠ه)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ ه.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (ت: ٦١٦ه)، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق: د. عبد الإله النبهان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٦ه.

- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح (ت: ٥٦٧١)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤ه.
- القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، خطيب دمشق (ت: ٥٧٣٩)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم، دار الجيل، بيروت، ط٣.
- المظهري، محمد ثناء الله، تفسير القرآن، المحقق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، باكستان، ٤١٢١هـ.
- مكي، أبو محمد مكي بن أبي طالب (ت: ٥٤٣٧)، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، ط١، ١٤٢٩ ه.
- النعماني، عمر بن علي بن عادل (ت: ٥٧٧٥)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩ه.
- النيسابوريّ، أحمد بن الحسين بن مِهْران (ت: ٣٨١هـ)، المبسوط في القراءات العشر، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية – دمشق ١٩٨١ م.
- الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (ت: ١٣٦٢هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ضبط: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.
- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد (ت: ٥٤٦٨)، التفسير البسيط، تحقيق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ.